بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ عبده ورسوله محمد أفضل الرسل وخاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين

وبعد:

فهذا الكتاب لصاحبته مروة الشاكري، أستاذ التاريخ المساعد بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، يتحدث عن قراءة داروين في الفكر العربي في الفترة ما بين عام **١٨٦٠** إلىٰ **١٩٥٠**. ولا يتوهم القارئ أنه يتناول الداروينية من الجانب البيولوجي لها، أي ترقي الإنسان من صورة عليا من القردة إلىٰ أن صار بشرًا سويًا، وإنما يتحدث عن تطور هذه الفكرة نفسها في العالم العربي مثل تشبعها بالفكر المادي تارة علىٰ يد الماديين العرب أمثال الدكتور شبلي شميل، وتارة أخرىٰ بالتطور الاجتماعي مثل أنصار هربرت سبنسر، وتلونها بالفكر الاشتراكي من حيث النظر إلىٰ المجتمع أو الأمة وكأنها كائن حي يعمل فيه الجزء لخدمة الكل والكل يسهر علىٰ خدمة الجزء، عملًا بقول رسول الله ﷺ «**مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم كمثلِ الجسد، إِذا اشتكىٰ منه عضو، تَدَاعَىٰ له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ**».

وهكذا، فقد تطورت هذه الفكرة وتشكلت في عالمنا العربي كما في شتىٰ أرجاء العالم واصطبغت بمختلف الرؤىٰ والتوجهات والفلسفات الأخرىٰ. والكتاب يتحدث عن حركات الإصلاح في المجتمعات العربية والمؤسسات التربوية وظهور الجرائد والمجلات والجمعيات والجامعات وانتشار التعليم وتراجع معدلات الأمية وتفشي الاستعمار وانبثاق الحركات التحررية وتحرير المرأة والاختراعات والاكتشافات

الحديثة وغيرها. فالداروينية ههنا لا تعدو كونها مظلة دلالية تغطي الكثير من الأفكار والتوجهات التي تأثرت بفكرة الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح - وهي الفكرة التي ما زالت تهيمن علىٰ العالم إلىٰ يومنا هذا؛ وهذا ما صرح به قاسم أمين منذ القرن العشرين حين قال: «هذا ما سمَّاه داروين قانون التزاحم في الحياة: فطرة الله التي فطر عليها جميع الأنواع، وأودعها لها، لتُعدَّها إلىٰ الرقي في درجات الكمال؛ فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعة اضمحل ونبذه الوجود إلىٰ خفاء العدم، وما قوي عند التغالب أظفره الله بالنصر المبين؛ فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنًا بظفره علىٰ أنه أفضل بني نوعه وأكرمهم؛ فيعيش، ويبقىٰ، ويتناسل، وينمو، ويظهر فيه كمال نوعه، وتخلد به آثاره. فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلاَّ طريق واحدة لا مندوحة عنها؛ وهي أن تستعدَّ الأمَّة لهذا القتال، وتأخذ له أهُبَتَها، وتستجمع من القوَّة ما يساوي القوَّة التي تهاجمها من أي نوع كانت، خصوصًا تلك القوَّة المعنويَّة؛ وهي قوَّة العقل والعلم التي هي أساس كل قوَّة سواها».

ويقول الناقد الأدبي فيصل دراج في تعليقه علىٰ هذا الكتاب: «ليس غريبًا أن تحظىٰ أفكار تشارلز داروين، مؤسس نظرية التطور وصاحب كتاب «أصل الأنواع»، بحضور لافت بين المفكّرين والمثقفين العرب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فقد كان في كلمة «التطور» ما يرضي أفكارًا عربية، ترفض الجمود العثماني، كما التخلّف بعامة، وتنظر إلىٰ حياة جديدة مليئة بالحركة والتجدّد. وإضافة إلىٰ هذا المنظور الذي لبّىٰ تصورًا ليبراليًا نهضويًا، كان هناك الميل النهضوي إلىٰ الفصل بين العلم والدين، إذ للعلم مجاله وآثاره المادية العملية، وإذ للكون وللمجتمع أسبابهما التي تفسّر حركتيهما، وإذ للدين مجاله الذي يشبع حاجات روحية. وكان في الأمرين ذاك الانفتاح علىٰ الغرب الذي يعاين تقدم الغربيين، وينظر إلىٰ تخلّف الشرق المستمر منذ قرون. ولهذا عثر داروين علىٰ مجموعه المريدين، أو أشباه المريدين، أدباء كانوا أو رجال دين أو فئة ثالثة مشغولة مباشرة بالعلم وقضاياه».

وهذا ما جعلني أقدم علىٰ ترجمة هذا الكتاب لأنه كما ذكرنا لا يخوض في الفكر البيولوجي للداروينية فحسب، وإنما عرفني علىٰ الكثير والكثير من الأفكار التي

ظهرت في العصر الفيكتوري والعصر الحديث لم يكن لي سبيل إلىٰ معرفتها من قبل. وطاف بي شرقًا وغربًا، إلىٰ القديم والحديث، والغريب والمألوف؛ وعرفني إلىٰ الكثير من الفلسفات وأعلام الفكر في الشرق والغرب؛ فلم أسترح يومًا طيلة قراءتي لسطوره.

والمؤلفة واسعة الاطلاع، غزيرة الفكر، متبحرة في دراسة الشرق الأوسط الحديث، وملمة بالأفكار والفلسفات التي تجلت في تلك الفترة، والأهم أنها تقلب في تراثنا العربي الذي يجهله الكثير منا وتحيي روائعه وتستنهض أمجاده وتعرفنا علىٰ قامات وهامات ورؤىٰ وفلسفات لا نعرف عنها اليوم اللهم إلا النزر اليسير. وشعرت وأنا في غمار هذه الترجمة ويكأن المؤلفة قد عاشت في تلك الفترة وعاصرت رموز هذه القصة؛ فكأنها تراهم وتستبصر عمليات الأخذ والرد والدحض والتأييد بين هؤلاء الرموز. وهي بمجرد أن تستشف فكرة بعينها في كتاباتهم فسرعان ما تربطها بالأفكار العربية التي تجلت في العصور الوسطىٰ أو بالأفكار العالمية وأعلام المشهد الثقافي والسياسي في العالم أجمع -دون تحيز ولا هوىً. وهي لا تكاد تتحدث عن أي شخصية من الشخصيات التي أوردتهم بين دفتي هذا الكتاب حتىٰ تستشهد ببعض كلماته قولًا وحرفًا- وهنا تكمن واحدة من أعوص المشكلات التي واجهتني.

❁ ❁ ❁

كانت المؤلفة تدلل علىٰ كل ما تقول باستشهادات من أمهات الكتب العربية وأعمال الكتَّاب الذين تتحدث عنهم. وثمة نوعان لهذه الاستشهادات: أولهما الاستشهاد بالمصادر الأجنبية، وهذا ما أيسره، فكنا نترجمه بما أفاء الله علينا به وبما وقر في نفوسنا من معناه والمراد به طبقًا لقاعدة الموقف والسياق. وثانيهما الاستشهاد بالمصادر العربية، وهذا ما أيسره هو الآخر، ما إن توفرت لدينا الكتب والمجلات العربية التي اقتبست منها، وإذا كانت نفس الطبعة التي نوّهت إليها.

ولكن تجلت صعوبة الترجمة في وعورة البحث عن النوع الأخير، لأن هذه الكتب لم تتوفر بهذه السهولة ومنها ما لم يتوفر علىٰ الإطلاق. ناهيك عن اختلاف النسخ والطبعات، والاقتباس من المخطوطات غير المتاحة والأرشيفات التي ليس لنا إليها بسبيل، والكتب العتيقة والجرائد والمجلات التي ظهرت واندثرت منذ أكثر من مائة عام كالمقتطف والمقطم والجنان وغيرها. وكانت المؤلفة تخطئ أحيانًا في رقم عدد

المجلة وأرقام صفحات الكتب، فكنا نتيه بين مئات الصفحات بحثًا عن فقرة، أو جملة. وأذكر أنني قرأت عشرات المقالات وقلبت في مئات الصفحات بحثًا عن كلمة واحدة، وما وجدتها.

وما زاد الوضع سوءًا في الاقتباس من المصادر العربية هو استشهاد المؤلفة من النسخة الإنجليزية المترجمة، مثل رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وتربية سلامة موسىٰ المترجَمَيْن للإنجليزية. فتخيل أنها لو أشارت إلىٰ فقرة اقتبستها من النص الإنجليزي، فما هو حجم المجهود الذي بذلناه للعثور عليه في النص العربي!؟ فكنا نتيه بين صفحات هذه الكتب، ونتوقف أحيانًا، ونيأس أحيانًا، ونعاود البحث أحيانًا أخرىٰ، وما أسعدنا حين نعثر علىٰ الفقرة أو الجملة التي قصدتها الكاتبة! فهذا كان يهون علينا مشقة البحث، التي لم يكن لها قيمة بجانب قيمة النص المترجم والوقوف علىٰ المعنىٰ المقصود.

وأشار عليّ نفر من أصدقائي المترجمين بألّا أرهق نفسي بحثًا عن تلك المصادر، وأن أترجم ما ذكرته الكاتبة مباشرة، والحجة علىٰ الراوي! . . . ولكن كيف!؟ فهي لم تستشهد بفقرة أو اثنين أو عشرة أو حتىٰ مائة! فلا يكاد يوجد صفحة، بل فقرة في الكتاب دون الاستشهاد بجملة تؤيدها أو كلمة تثبتها. فكنت أسأل نفسي دومًا: كيف لي أن أقيد جميع الأفكار والرؤىٰ والعبارات والألفاظ التي تستشهد بها الكاتبة لألفاظي وعباراتي؟ وكيف أحرم القارئ العربي من قراءة هذه الكلمات الخالدة وأحول دون تذوقه لهذه الأفكار بمفرداتها الأصلية؟ وكان همي هو تفادي عملية الترجمة العكسية *(Back Translation)* ولو كانت أكثر فصاحة وأبلغ تعبيرًا من النص الأصلي. فأذكر أنني قابلت في صدر الفصل الثالث بيتًا للشاعر العربي محي الدين بن عربي، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، واستشهد به الدكتور شبلي شميل في كتاب «فلسفة النشوء والارتقاء» حيث ترجمته المؤلفة في كتابها كما يلي: "*See him in a tree, see him in a stone, see him in everything, that is God*". وبحثت عنه في بادئ الأمر كثيرًا ولكن دون جدوىٰ. فعزمت علىٰ ترجمته كما يلي: «تراه في الشجر، تراه في الحجر، تراه في كل أمر وخبر، ذاك هو رب البشر». ولمّا اطمأنت نفسي لهذه الترجمة عثرت بعد بضعة أيام علىٰ النص الأصلي في كتاب

الدكتور شميل وهو يقول: «فانظرهُ في شجرٍ وانظرهُ في حجرٍ وانظرهُ في كل شيء ذلك الله». ولم أكن لأتوانىٰ لحظة واحدة في حذف ما ترجمته ووضع البيت الأصلي؛ فلم يكن لما ترجمته قيمة تذكر بجانب بهاء وجلال النص الأصلي، ولو قاله رجل عامي. ومن يقول خلاف ذلك، فعبثًا يقول. فلا قوة ولا بلاغة تضاهي قوة وبلاغة النص الأصلي، قبل الترجمة، ولئن كُتب باللغة العامية كما قلنا.

وهذا لا يعني أنني قد توصلت لكافة الأعمال أو الاقتباسات العربية التي استشهدت بها المؤلفة. وكيف يتسنىٰ لي ذلك؟ وكيف أقارن مجهودي الفردي في بضعة أشهر بمجهود المؤلفة التي قضت سنوات طوالًا في البحث والتحقيق والقراءة والاطلاع والوصول إلىٰ المخطوطات والأرشيفات العربية والأجنبية. ولكنني توصلت إلىٰ قدر لا بئس به من الأعمال والاقتباسات الرئيسة. أما ما أخفقت في التوصل إليه فقد عملت علىٰ محاكاة أسلوب صاحبه في الأعمال الأخرىٰ كي أقربه بقدر استطاعتي إلىٰ روح العصر الذي كتب فيه.

❁ ❁ ❁

أما المشكلة الثانية التي واجهتني فهي المصطلحات الفلسفية التي يحفل بها هذا الكتاب. فكنت من قبل قد ترجمت آلاف الصفحات من المقالات القانونية والتجارية والتقنية والصحفية والعامة وغيرها - وهي مرحلة لا غنىٰ عنها لأي مترجم؛ ولم يكن لي دُربة في الأعمال الفكرية والفلسفية من قبل. وتوقفت أمام بعض الفلسفات التي قرأت فيها من قبل فكان فهمها يسيرًا ومنها ما كان دون فهمه خرط القتاد. ولعمري ما هذا الكم الهائل من الفلسفات التي قابلتها وأنا ابن الخامسة والعشرين! فالكتاب يحتوي علىٰ مئات الكلمات التي تنتهي بمقطع *(-ism)* وأنتم تعلمون وعورة ترجمة هذه النوعية من المصطلحات لما تحتوي عليها من معانٍ ودلالات متباينة. ولكن من يتوكل علىٰ الله فهو حسبه، وتغلبت علىٰ صعوبة الألفاظ ووعورة الأفكار بنصيحة أستاذ الترجمة الدكتور محمد عناني لمّا قال: «علىٰ المترجم ألا يخشىٰ زيادة عدد الكلمات فالوضوح لا يقدر بثمن». وكنت أنتقي من الترجمات أيسرها ومن الألفاظ أسهلها. فكلمة *(collectivism)* مثلًا تترجم بالجماعاتية والجماعية (وأحيانًا بالاشتراكية في المجلات العربية القديمة)، فكنت أختار «الجماعية» لوضوحها وسهولتها ولوجودها

بالمعاجم العربية للإشارة إلىٰ نفس المفهوم. ومثلها «الفردية» التي استحسنتها علىٰ الفردانية والاستفراد كترجمة لمصطلح *(individualism)*.

وكان هدفي السهولة والوضوح مع دقة المعنىٰ والحفاظ علىٰ مقاصد المؤلفة دون مبالغة أو تكلف. ولم أتحيز لطائفة أو حزب أو فكرة، ونحيت أهوائي وما وقر في نفسي جانبًا. فمثلًا لمّا قالت في ثورة عرابي وثورة ١٩١٩ *(uprising)* قلنا «انتفاضة» ولما قالت *(revolution)* قلنا «ثورة»، ولما قالت *(coup)* قلنا «انقلاب»؛ فلم يكن لنا ناقة ولا جمل في استحسان كلمة علىٰ أخرىٰ، ولئن أعجبت جماعة أو أغضبت آخرين.

وتجلت الصعوبة أيضًا في ترجمة بعض المصطلحات الأخرىٰ التي كان لها أكثر من ترجمة مثل *(positivism)* التي ترجمها إسماعيل مظهر بالفلسفة اليقينية وترجمتها مجلة المقتطف بالفلسفة الوضعية تارة واليقينية تارة أخرىٰ، وكلمة *(civilization)* التي ترجمت بالحضارة والمدنية والعمران (كما في أعمال ابن خلدون)، ومصطلح *(materialism)* الذي ترجم بالمادية تارة وبالدهرية تارة أخرىٰ، وكذلك *(struggle for life)* الصراع من أجل البقاء وتنازع البقاء والتناحر علىٰ البقاء، وكتاب داروين *(Descent of Man)* الذي ترجم بنشأة الإنسان وتسلسل الإنسان وخلق الإنسان وأصل الإنسان وانحدار الإنسان، وكلمة *(evolution)* التي ترجمت بالتسلسل والتطور والنشوء والارتقاء، وكلها ترجمات واجتهادات لمسمًى واحد. لكنني لم أحاب ترجمة علىٰ حساب الأخرىٰ، فكنت أستعمل ترجمة كل جماعة أو شخص في السياق الذي يتحدث عنه: فالدكتور شبلي شميل وإسماعيل مظهر كانا يفضلان النشوء والارتقاء فاستعملتها عند التحدث عنهما، واستعملت كلمة التطور مع سلامة موسىٰ الذي طالما استخدمها في كتاباته.

وواجهتني مشكلة أخرىٰ في ترجمة كلمة *(God)* علىٰ لسان المسيحيين. فلقد اعتدنا كما علمنا أساتذتنا علىٰ ترجمتها «الرب» إذا ذكرت علىٰ لسان المسيحيين تمييزًا لها عن كلمة «الله» في شريعة المسلمين. إلا أن المؤلفة زادت الأمر صعوبة بعدم ذكرها لكلمة *(Allah)* عندما تحدثت عن الأعمال والكتاب المسلمين. وكان عليّ في بادئ الأمر التمييز بين الاثنين حسب السياق. فعندما تقول مجلة المقتطف (ومحرراها مسيحيان) *(God)* فلا بدّ أن المقصود بها «الرب» -كما خُيّل لي-، وعندما يقولها

الإمام محمد عبده، علىٰ سبيل المثال، فهو يقصد بها «الله». وهذا ما رحت إليه عندما قرأت الكتاب للمرة الأولىٰ وعزمت علىٰ ترجمتها بهذا الشكل. ولكن بعدما توصلت لمجلة المقتطف بعد ما ينيف عن شهر من الترجمة وقرأت لسلامة موسىٰ وشبلي شميل وجرجي زيدان ولويس شيخو وغيرهم، وجدتهم يقولون «الله» مثلنا نحن المسلمين، ولا أثارة تذكر لكلمة «الرب». فقررت هدم كل ما بنيت مرة أخرىٰ -دون أن يندىٰ جبيني لذلك- وشعرت بغبطة شديدة لأنني اهتديت إلىٰ الصواب، فالحق أحق أن يتبع، ضاربًا بالقواعد عرض الحائط.

ولا يوجد هذا التمييز بين «الله» و«الرب» اللهم إلا في حوار ورد في يوميات ويلفرد بلنت، حيث يقص علينا المقابلة التي جمعت بين هربرت سبنسر والإمام محمد عبده، إذ يسعىٰ سبنسر إلىٰ أن يفهم من الإمام الفرق بين «الرب» عند النصارىٰ و«الله» عند المسلمين. كما استحسنت عند ترجمة اسم رسولنا الكريم أن أصلي وأسلم عليه لأنني استحييت أن أذكر اسمه ولا أصلي عليه مثلما يجري في سطور العمل الإنجليزي، أو أقول المصطفىٰ وهكذا.

❁ ❁ ❁

وختامًا فإن هذه باكورة أعمالي الأدبية في مجال الترجمة والتعريب أضعها بين يدي القراء من خلال ترجمة كتاب «قراءة داروين في الفكر العربي»؛ وأنا بذلك إنما أخوض في لجة بحر عظيم متلاطم الأمواج يقف البصير بشاطئه حيرانَ. فأساله جل وعلا مستلهما منه العون والتوفيق. ولله در القائل إن لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ فأول ما يجني عليه اجتهاده. وأرجو من الله ﷻ أن ينال إعجابكم ويحظىٰ بقبولكم، وأن ينفع الله به القارئ والباحث والدارس. هذا وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان. وليس يفوتني أن أتوجه بخالص الشكر لأساتذتي الذين علموني وأرشدوني لهذا الطريق ولهم الفضل الأول علي بعد الله ﷻ، وعلىٰ رأسهم الدكتور عادل عفيفي، والدكتور أيمن الحلفاوي، والدكتور أمير حمزة، والمترجم المخضرم محمد عبد اللاه؛ فجزاهم الله جزاء الخير وخير الجزاء. وكما يقولون: المأمول من الناظر أن يكون للعيب ساتر، وللزلل غافر، فإن الكريم يسمح، وإذا وجد الشين يصفح، والله يمن بالقبول، للسائل والمسئول.